رويّ الزاي

عقل المجيز عقل المجاز

وقال بدمشق يمدح أبا بكر علي بن صالح الروذباريّ الكاتب:

[الخفيف]

كَـفِـرِنْـدِي فِـرِنْـدُ سَـيْـفِـي الْـجُـرَازِ
لَـذَّةُ الْـعَـيْـنِ عُـدَّةٌ لِـلْـبِـرَازِ[١]
تَـحْـسَـبُ الـمَـاءَ خَـطَّ فـي لَـهَـبِ الـنَّـا
رِ أَدَقَّ ٱلْـخُـطُـوطِ فـي الأَحْـرَازِ[٢]
كُـلَّـمَـا رُمْـتَ لَـوْنَـهُ مَـنَـعَ الـنَّـا
ظِـرَ مَـوْجٌ كَـأَنَّـهُ مِـنْـكَ هَـازِي[٣]
وَدَقِـيـقٌ قَـذَى ٱلـهَـبَـاءِ أَنِـيـقٌ
مُـتَـوَالٍ فـي مُـسْـتَـوٍ هَـزْهَـازِ[٤]

---

(١) و (٢) فرند السيف: جوهره. البراز: المبارزة. الأحراز، الواحد حرز: الرقى. يمدح الشاعر نفسه بالمضاء وعلو الهمة والشجاعة، ففرند سيفه شبيه به من حيث أثره ومظهره، إنه خير عدة سلاحه عند مبارزته الأقران، فهو بمثابة حِرز يقيه من عاديات الغدر في الحروب، وبريقه شهاب لاهب قاطع إذا جرّده بدا حدّه بخطوطه كرموز دقيقة في الأحراز.

(٣) هازي خففت همزته من هازئ للقافية. ومن صفات ذلك السيف أنه شديد البياض المتموّج لكثرة استعماله في الحروب وتموّج حدّه يسرق النظر شعاعه، ورغم ذلك لا يستطيع المرء تثبيت نظره لشدّة إشعاعه.

(٤) القذى: ما يسقط في العين والشراب. الهباء: الشيء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس. الأنيق: الجميل والحسن المظهر. المتوالي: المتتابع. المستوي: المستقيم. الهزهاز: المضطرب. يُتابع الشاعر وصف سيفه، ففرنده دقيق تنساب =

وَرَدَ الـمَـاءَ فَـالْـجَـوَانِـبُ قَـدْراً
شَـرِبَـتْ والَّـتِـي تَـلِـيـهَـا جَـوَازِي[١]
حَـمَـلَـتْـهُ حَـمَـائِـلُ الـدَّهْـرِ حـتـى
هِـيَ مُـحْـتَـاجَـةٌ إلَـى خَـرَّازِ[٢]
وَهْـوَ لا تَـلْـحَـقُ الـدِّمَـاءُ غِـرَارَيْـ
ـهِ وَلَا عِـرْضَ مُـنْـتَـضِـيـهِ الـمَـخَـازِي[٣]
يـا مُـزِيـلَ الـظَّـلَام عَـنِّـي وَرَوْضِـي
يَـوْمَ شُـرْبِـي وَمَـعْـقِـلِـي فـي الْـبَـرَازِ[٤]
وَالـيـمَـانـي الَّـذِي لَـوِ اْسْـطَـعْـتُ كَـانَـتْ
مُـقْـلَـتِـي غِـمْـدَهُ مـنَ الإعْـزَازِ[٥]

= الخطوط فيه على سمت مستوٍ وهو كثير الاضطراب فتبدو فيه الحركة ممّا يمنع الناظر إليه من تدقيق النظر فيه.

(١) الجوازي مخفّفة الهمز من الجوازئ: الاكتفاء عن غيره به. ولقد تأتي ليونة السيف من جرّاء سقايته خلال صناعته، بينما بقي متنه دون ذلك ليكون ذلك أثبت له عند الضرب فلا يتكسّر.

(٢) الحمائل، الواحد حميلة: ما يحمل به. الخرّاز: الذي يخرّز الحمائل بالسيور ويربطها ببعضها. إنه قديم العهد، فقد تداولت أيد كثيرة ذلك السيف حتى أصبحت حمائله خلقة لقدمه، حتى بدا كأن الدهر حامل له.

(٣) غراريه: حدّيه. العرض: ما يتوجب على المرء حمايته من مال وعرض وأرض. انتضى السيف: سلّه. المخازي: العار. يصف الشاعر سرعة ضربه بسيفه حتى إنه لا يتلطخ دماً لسرعة انقضاضه على ضحيته ولا يلصق بها وإنه مفخرة كاملة فلا تُصيب المخازي منتضيه، فإنه لا يُخيّب ظنّه وقت الحاجة إليه لقيامه بما عليه من واجب.

(٤) المعقل: الحصن. البراز: الخلاء حيث لا ساتر في الصحراء. يُخاطب الشاعر سيفه؛ إنه كاشف الظلمة يوم يشتدّ الزحام ويتعالى الغبار في السماء، فإذا ببريقه يُنير له الطريق إلى اكتشاف مواطن الأعداء فيرتوي من دمائهم، وبه يتحصّن ويزود عن نفسه في مواطن الوحشة في الصحراء حيث لا أنيس فيحتمي به.

(٥) اليماني: السيف المصنوع في اليمن. ولقد نشأت علاقة حميمة بين الشاعر وسيفه؛ فهو مصدر اعتزازه وفخره لذا أبقاه يستعين به، ولو استطاع لجعل من عينيه غمداً له.

إنَّ بَـــرْقِـــي إذَا بـــرَقْـــتَ فَـــعـــالِـــي
وَصَـلِـيـلِـي إذَا صَـلَـلْـتَ ٱرْتِـجَـازِي[١]
لَـــمْ أُحـــمِّـــلْـــكَ مُـــعْـــلَـــمـــاً هٰـكَـذَا إ
لَّا لِـــضَـــرْبِ الـــرِّقَـــابِ والأجْـــوَازِ[٢]
وَلِـقَـطْـعِـي بِـكَ الْـحَـدِيـدَ عَـلَـيْـهَـا
فَـكِـلَانَـا لِـجِـنْـسِـهِ الْـيَـوْمَ غـازِ[٣]
سَـلَّـهُ الـرَّكْـضُ بَـعْـدَ وهْـنٍ بِـنَـجْـدٍ
فَـتَـصَـدَّى لِـلْـغَـيْـثِ أَهْـلُ الْـحِـجَـازِ[٤]
وَتَـمَـنَّـيْـتُ مِـثْـلَـهُ فَـكَـأَنِّـي
طَـالِـبٌ لابْـنِ صَـالِـحٍ مَـنْ يُـوَازِي[٥]

(١) الفعال: الحسن من الأفعال. الصليل: صوت السيف. الارتجاز: الإنشاد وقول الرجز من الشعر. إنه تلازم انسجامي بين الشاعر وسيفه، فبرق السيف، يُقابله أفعال الشاعر المجيدة، وصوت صليل السيف يُقابله إنشاده الأراجيز وتغنيه بشعره الحماسيّ مفتخراً بأعماله في الحروب وسيفه وسيلته للنصر.

(٢) و (٣) المعلم: هو من اتخذ لنفسه علامة في الحرب دلالة على ثقته بشجاعته. الأجواز، الواحد جوز: أوساط المقاتلين، لا يزال الشاعر يُخاطب سيفه؛ إنه يحمله وهو يتخذ لنفسه علامة تميّزه عن غيره من المقاتلين ثقة بشجاعته، وبها يتميّز فيقصده من يودّ منازلته، ولقد استعان به ليقضم أوساط أعدائه ويبريهم به وليقطع الحديد الذي يحتمون به من تروس ودروع، لذا فكل من الشاعر والسيف يغزو جنسه، فيه يقدّ الحديد وبه يُوقع بالأبطال والشجعان.

(٤) الوهن: الليل، ومنتصف الليل، تعرّض: تصدّى مواجهاً. الغيث: المطر. ومن أثر السيف أنه كان الشاعر يُسرع ركض خيول من معه، ولشدّة ذلك إذ انسلّ السيف من غمده، فإذا ببريق يُضيء السماء في نجد، فإذا بالإشعاعات النورانية تبدو في سماء الحجاز، مما جعل أهل تلك الديار يتوقّعون هطول الأمطار مستبشرين بالخير العميم.

(٥) يُوازي: يُساوي، يُعادل. يتخلّص الشاعر إلى المدح بعد مقدمته الطويلة في حديثه عن سيفه الذي تمنّى أن تقع عينه على شبيه به إذ به يعثر عن ممدوحه ابن صالح مجسداً ما وجده في سيفه من صفات حميدة يُحبّها ويستحسنها.

لَـيْـسَ كُـلُّ الـسَّـرَاةِ بـالـرُّوذْبَـار
يِّ وَلَا كُـلُّ مَـا يَـطِـيـرُ بِـبَـازِ[١]
فَـارِسِـيٌّ لَـه مِـنَ الـمَـجْـدِ تَـاجٌ
كَـانَ مِـنْ جَـوْهَـرٍ عَـلَـى أبْـرَوَازِ[٢]
نَـفْـسُـهُ فَـوْقَ كـلِّ أصْـلٍ شَـرِيـفٍ
وَلَـوَ انِّـي لَـهُ إلَـى الـشَّـمْـسِ عـازِ[٣]
شَـغَـلَـتْ قَـلْـبَـهُ حِـسَـانُ الـمَـعَـالِـي
عَـنْ حِـسَـانِ الْـوُجُـوهِ وَالأعْـجَـازِ[٤]
وَكَـأَنَّ الْـفَـرِيـدَ وَالـدُّرَّ وَالْـيَـا
قُـوتَ مِـنْ لَـفْـظِـهِ وَسَـامَ الـرِّكَـازِ[٥]

---

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. السراة، الواحد سريّ: الشرفاء والنبلاء. الروذباري: نسبة الممدوح إلى مدينته روذبار. أبرواز: إنه أبرويز أحد أكاسرة الفرس وملوك العجم. يمدح الشاعر ممدوحه بالنبل والسؤدد وعلوّ شرفه في قومه إنه يُحلّق في سماء المجد، ولذا فليس كلّ من زاول الطيران في هذا المجال يُدرك معاليه لأنه ورث المجد عن آبائه الملوك الأكاسرة العظام، وهو ينتمي إلى كسرى أبرويز الذي ترك له تاجاً يذكّر بعظمة أجداده.

(٣) ومن مغالاة الشاعر أنه جعل ممدوحه يسمو فوق سائر البشر حتى الشمس وعظم ارتفاعها، فإذا بها دونه شرفاً ورفعة.

(٤) الأعجاز، الواحد عجز: وعجز المرأة مؤخّرتها. يُنوّه الشاعر بطموح ممدوحه، فقد عمل أقصى جهده للوصول إلى الأمجاد العظيمة ولم تلهه الملذّات بشتى أنواعها، لذا فلم يهتمّ بالنساء وجمالهن ومغازلتهن؛ وهذا خلاف ما يُعرف عن الفرس وميولهم إلى المسرّات على شتى أنواعها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. يروى «فكأن» بدلاً من «وكأن». الفريد: كبار حبات اللؤلؤ. السام: عروق الذهب. الركاز: الذهب في باطن الأرض. يصف الشاعر ممدوحه بالفصاحة والبلاغة، فإذا بحبات اللؤلؤ الكبيرة تنتظم من سلك أقواله، وبالذهب يستمدّ لمعانه من بريق معانيه حتى ما كان منه مدفوناً في باطن الأرض لشدّة تأثيره في ذلك المجال.

تَـقْـضَـمُ الْـجَـمْـرَ وَالْـحَـدِيـدَ الأعَـادِي
دُونَـــهُ قَـــضْـــمَ سُـــكَّـــرِ الأهْـــوَازِ[١]
بَـلَّـغَـتْـهُ الْـبَـلَاغَـةُ ٱلْـجَـهْـدَ بِـالْـعَـفْـ
ـوِ وَنَـــالَ الإســـهـــابَ بـــالإيـــجَـــازِ[٢]
حَـامِـلُ ٱلْـحَـرْبِ وَالـدِّيـاتِ عَـنِ الْـقَـوْ
مِ وَثِـــقْـــلِ الـــدُّيُـــون والإعْـــوَازِ[٣]
كَـيْـفَ لَا يَـشْـتَـكِـي وَكَـيْـفَ تَـشَـكَّـوْا
وَبِـهِ لَا بِـمَـنْ شَـكَـاهَـا الـمَـرَازِي[٤]
أيُّـهَـا الْـوَاسِـعُ الْـفِـنَـاءِ وَمَـا فِـيـ
ـهِ مَـبِـيـتٌ لِـمَـالِـكَ الـمُـجْـتَـازِ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. قضم: قطع ما هو يابس بأطراف الأسنان. الأهواز: كور بين البصرة وفارس، يذكر الشاعر أن أعداء ممدوحه يقضمون الجمر الملتهب والحديد الحامي لشدّة حسدهم وغيظهم للممدوح كما يُقضم السكر المنتج في الأهواز.

(٢) العفو: المتوفّر بسهولة. الإسهاب: إطالة القول عكس الإيجاز. يصف الشاعر ممدوحه ببلاغته التي تمتاز بالإيجاز وعدم الإطالة في أقواله عكس غيره ممن يُطيلون القول ولا يُجيدون التعبير عمَّا يُريدون.

(٣) الديات، الواحدة دية: ما يُؤخذ عن القاتل من مال ليردّ على ورثة القتيل. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يتعهّد بأداء الديات للأرامل وأولادهنّ عن القتلة وسدّ ديون المعوزين لعجزهم عن سدّ ديونهم؛ وتلك ظاهرة إنسانيّة تنمّ عن نبل صاحبها.

(٤) المرازي، الواحدة مرزئة: المصائب، مخففة الهمز للضرورة الشعرية. وممّا يدل على شدّة احتماله وحلّ مشاكل قومه أنه لا يشكو ذلك بصبر عجيب، وهو يتألم لما ينزل بقومه من مصائب فيعمل على تحملها ليُخفف عنهم ما يُلاقون من البلايا.

(٥) فناء الدار: ما امتدّ من جوانبها، المجتاز: المارّ بديار ولا ينزل بها. يمدح الشاعر ممدوحه بجوده وكثرة عطائه، فرغم سعة ملكه ودوره فالمال لا يحتفظ به، بل إنه يوزّعه ولا يقرّ له قرار في خزائنه فتبقى على حالها فارغة خالية.

بِـكَ أَضْـحَـى شَـبَـا الأَسِـنَّـة عِـنْـدِي
كَـشَـبَـا أَسْـوُقِ الْـجَـرَادِ الـنَّـوَازِي[١]
وَانْـثَـنَـى عَـنِّـيَ الـرُّدَيْـنِـيُّ حَـتَّـى
دَارَ دَوْرَ الْـحُـرُوفِ فِـي هَـوَّازِ[٢]
وَبِـآبَـائِـكَ الْـكِـرَامِ الـتَّـأَسِّـي
وَالـتَّـسَـلِّـي عَـمَّـنْ مَـضَـى وَالـتَّـعَـازِي[٣]
تَـرَكُـوا الأَرْضَ بَـعْـدَ مَـا ذَلَّـلُـوهَـا
وَمَـشَـتْ تَـحْـتَـهُـمْ بِـلَا مِـهْـمَـازِ[٤]
وَأَطَـاعَـتْـهُـمُ الْـجُـيُـوشُ وَهِـيـبُـوا
فَـكَـلَامُ الْـوَرَى لَـهُـمْ كَـالـنُّـحَـازِ[٥]

(١) و (٢) شبا الأسنة: الواحدة شباة: حدّها. أسْوق، الواحد ساق. النوازي: الواثبة. ينوّه الشاعر بمناعة ممدوحه، إنه حالما نزل في دياره أحسّ بالأمن، لأن جوار الممدوح منيع فلا يجرؤ أحد أن ينقضّ عليه، لذا صار سنان رمح الشاعر بمثابة ساق الجرادة لعدم اهتمامه بذلك واطمئنانه في كنف الممدوح. فكان من أثر ذلك أن رمحه انثنى حزناً والتوى على نفسه فبات كالحروف المدوّرة في هوز كالهاء والواو والزاي.

(٣) و (٤) التأسي: التعزّي. التعازي، الواحدة تعزية. المهماز: حديدة تستعمل لحثّ الدابّة على الإسراع. الموت حق على سائر العباد، والمرء إنما يتأسى بذكر العظماء كيف عمروا الأرض وتركوا ما قاموا به، يُخاطب الشاعر ممدوحه أن عزاءه يستمده من موت آباء الممدوح الكرام؛ وهذا ما يجعله يقبل بمصير أقربائه الذين فقدهم، وقد ساد آباء الممدوح الدنيا وانقادت لهم بمقاليدها طائعة دون وسائل راغمة، انقياد الدابة الذلول دون استعمال مهماز يحثّ خطاها.

(٥) هيبوا: هابهم البشر. النحاز: من الأدواء التي تصيب الإبل والغنم في صدورها يُشبه السعال. ولقد سيّر هؤلاء الجيوش وتوالت انتصاراتهم ممّا حمل الناس على الانسياق لإرادتهم والانصياع لحكمهم، ممَّا حملهم على التكبّر فلم يُنصتوا لنداء ورجاء البشر، وكأنهم بنظرهم حيوانات تصدر سُعالاً.

وَهِـجَـانٍ عَـلَـى هِـجَـانٍ تَـآيَـتْـ
ـكَ عَـدَيـدَ الْـحُـبُـوبِ فـي الأَقْـوَازِ[١]
صَـفَّـهَـا الـسَّـيْـرُ فِـي الْـعَـرَاءِ فَـكَـانَـتْ
فَـوْقَ مِـثْـلِ الـمُـلَاءِ مِـثْـلَ الـطِّـرَازِ[٢]
وَحَـكَـى فـي الـلُّـحُـومِ فِـعْـلَـكَ فـي الـوَفْـ
ـرِ فَـأَوْدَى بِـالْـعَـنْـتَـرِيـسِ الْـكِـنَـازِ[٣]
كُـلَّـمَـا جَـادَتِ الـظُّـنُـونُ بِـوَعْـدٍ
عَـنْـكَ جَـادَتْ يَـدَاكَ بِـالإِنْـجَـازِ[٤]
مَـلِـكٌ مُـنْـشِـدُ الْـقَـرِيـضِ لَـدَيْـهِ
وَاضِـعُ الـثَّـوْبِ فـي يَـدَيْ بَـزَّازِ[٥]
وَلَـنَـا الْـقَـوْلُ وَهْـوَ أَدْرَى بِـفَـحْـوَا
هُ وَأَهْـدَى فِـيـهِ إِلَـى الإِعْـجَـازِ[٦]

---

(١)٢ و (٢) الهجان: كرام الإبل والبشر. الكرام: النبلاء. تآيتك: قصدتك. العراء: الفضاء الرحب. الملاء، الواحدة ملاءة: الريطة ذات لفقين. الطِّراز: النقش في الأثواب. تتوالى الحشود منتظمة قاصدة الممدوح من الأقطار على كرام الإبل لتقدّم الطاعة والولاء؛ إنهم صفوف قد غطّت الأرض على سعتها بانتظام، وكلّ في موضعه لا يُزاحم الآخرين احتراماً وهيبة للممدوح.

(٣) الوافر: المال الفائض الكثير. أودى: أهلك. العنتريس من النياق: القوية الشديدة. الكناز: المكتنزة اللحم. يُخاطب الشاعر ممدوحه، فلطول المسافة بين القوم وقصره هدّ السير من عزيمة تلك الراحلات ممَّا أدى إلى إضعافها حتى كادت تفنى تماماً كما يقوم الممدوح بجزر المكتنز من النياق للقيام بواجب الضيافة.

(٤) وممَّا يدلّ على ثقة الناس بكرم الممدوح؛ فإذا ظنّ أحدهم بأن الممدوح سيتقدّم منه بعطاء، فإذا بظنّه يتحقّق بمُبادرته إلى تحقيق رجائه.

(٥) و (٦) القريض: الشعر. البزاز: بائع البزّ وصانعه وتاجره. وفي معرض افتخاره بشعره يُثني الشاعر على الممدوح بحسن تذوّق الشعر لمعرفته بالجيّد منه، فمعرفته كمعرفة بائع البزّ وتميّز الجيّد من الرديء منه، وعليه فإنه إذا سمع شعر المتنبي أيقن بأنه هو الموحي بالمعجز منه لتوفر تلك الصفات فيه التي يتناولها الشاعر بالإشادة والمدح.

وَمِـنَ الـنَّـاسِ مَـنْ يَـجُـوزُ عَـلَـيْـهِ
شُـعَـرَاءُ كَـأَنَّـهَـا الْـخَـازِبَـازِ[١]
وَيَـرَى أَنَّـهُ الْـبَـصِـيـرُ بِـهٰـذَا
وَهْـوَ فـي ٱلْـعُـمْـيِ ضَـائِـعُ ٱلْـعُـكَّـازِ[٢]
كُـلُّ شِـعْـرٍ نَـظِـيـرُ قَـائِـلِـهِ فِـيـ
ـكَ وَعَـقْـلُ الـمُـجِـيـزِ عَـقْـلُ الـمُـجَـازِ[٣]

(١) و (٢) الخازبار: حكاية صوت الذباب. يُتابع الشاعر حديثه بأن بعض الممدوحين تخدعهم عبارات بعض من يتسمّوْن بشعراء، وهم ليسوا كذلك؛ فأصواتهم تحكي صوت الذباب يفتقد إلى عنصر الإعجاز فضلاً عن افتقادها إلى جيد المعنى والمبنى، وممَّا يُدهش له الممدوحين عمي قد افتقدوا وسيلة الهداية إلى المعجز من الشعر الجيد.

(٣) المجيز: الممدوح الذي يمنح الجائزة. المجاز: الشاعر الذي يتلقى الجائزة. ثمّة معادلة صحيحة تقوم بين الشاعر وممدوحه؛ فبقدر تقدير الشاعر من قبل ممدوحه يكون الممدوح؛ فالجيد من الشعراء يلتقي بالجيد من الممدوحين الذين يقدّرون موهبته ويُجازونه عطاءً يتناسب مع مكانتهم ومعرفتهم بفنون القول، والعكس صحيح، فمن ضؤلت معرفته بالشعر الجيد سوف يختار ما يُناسب فهمه وعلمه، فتكون جائزته على قدر معرفته.